رصة على الصديق الراحل

فليكس فارس

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

[دمعة على جثمان الصديق الراحل فليكس فارس المسجى بين الورود ألقيت في الحفل الكنائسي الذي أقيم للصلاة على روحه عصر الأحد ٥ يونيه ١٩٣٩ بمهو الكنيسة المارونية]

هنالك من الناس من تعرفهم فتشعر كأن لك بهم معرفة من قبل . ذلك لأنهم لا يعرفون عن طريق الصلات الزمنية ، وإنما هم يعرفون عن طريق الجو الذي يخلقونه حولهم . وما كان الصديق الراحل فليكس فارس إلا واحداً من هؤلاء : عرفته صيف عام ١٩٣٦ فسرعان ما تآلفنا وتآخينا . ولم يمض القليل من الزمن حتى أصبحنا إلفين لا ينقضي الأسبوع دون أن نتقابل فنتجاذب الحديث في شأن من شئون الحياة التي نحياها . وكثيراً ما كان يدور هذا الحديث على عوالم الفكر والشعور . وظلت صلتي بالراحل الكريم قوية حتى آخر لحظاته . فقد كنا حولة في الأيام الأخيرة وهو يجود بأنفاسه الأخيرة . لهذا كان نبأ نعيه لنا معشر أصحابه وخلانه صدمة أليمة . وكان قاسياً علينا أن نراه أمس حيًّا بيننا يملأ جونا بروحه حياة وأنساً ، وإذا به اليوم قد همد فيه عنصر الحياة الذي كان يطوف على شفتيه ابتسامة وعلى شغاف قلبه حنواً وعطفاً ...

إن هول فجيعتنا في فليكس فارس كبيرة ، جعل الدموع تجمد في أعيننا فظللنا بسحابة قاتمة أرسلت سوادها على صفحات قلوبنا فغمرتنا موجة من الكآبة ، فإذا لم تظهر على صفحات وجوهنا — نحن معشر خلانه — فداحة المصاب دموعاً ... فذلك لأن مصيبتنا بموت الصديق أقوى من أن يظهرها بكاء أو دموع ...

إيه أيها الراحل الكريم ! ... إن تلك الدموع التي جرت من عينيك وتجمعت في مآقيك ثم سالت على صفحات وجهك يوم زرتك للمرة الأخيرة ؛ وإن كلماتك التي خرجت من أعماقك مختلطة بنشيجك توصيني خيراً بفلذات كبدك ، كل هذه دخلت في عالم ذكرياتي ولن تذهب من نفسي ، فلقد دلت كلماتك وعبراتك على أن في الحياة عنصراً أقوى من كل القيود والسدود التي يقيمها البشر أبناء الحياة الواحدة للتفرقة فيما بينهم ، هذا العنصر يتجلى ساعة يأخذ الإنسان في الانحدار من عالم الحياة ، وساعة يحس بانحسار عنصر الحياة عن جسده ؛ في ذلك الحين يحس بشعور أقوى من كل إحساس بعوامل التفرقة بين أبناء الحياة الواحدة ، أقوى من الإحساس بالدين والوطن والجنس . وهذا الشعور يدفعه إلى أن يمد نفسه على رحاب الحياة وينسحب عليها متعلقاً بمظهرها الخالد التأجج ناراً والمتجدد في أبناء الحياة من جيل إلى جيل ، فيرى في كل إنسان أباً لأولاده .

إيه يا أبا حبيب ! ... إن آخر الكلمات التي تزودتها منك دارت حول الإيمان والحياة ، وهي كلمات لن تذهب معانيها وصورها من رأسي لأنها تدل على إيمانك العميق بالحياة ، ومن هنا كانت رحابة اعتقادك التي تجوز أن تكون الحقيقة حتى في كلام خصمك ... خصمك في الاعتقاد والرأي ، ومن هنا أيضاً فهمت سر اتساع أفق اعتقادك لآراء التي كانت تقف على نقيض آرائك .

إيه يا أبا أديب ! ... لقد فقدتُ بارتحالك شيئاً من نفسي كنت ترده عليّ حين ألقاك . وفقد أصدقاؤك بارتحالك إنساناً ودوداً براً ... وما أقل الأناسي في هذا الزمان ! ... أنظر أيها الراحل الكريم من وراء أكفانك تجدنا جمع أصدقائك قد بللت أذهاننا فداحة مصابنا فيك . ها هو ذا صديقك « خليل » وأخوه « صديق » أطلالها يبكيان فقدك . وها هو « أدهم » الحبيب إلى نفسك الذي كنت تداعبه باسم « الحكيم » فقد اليوم حكمته ؛ فقد تبلبل منه الذهن واختلطت في صدره المشاعر . لقد صدم الكل بارتحالك فذرفوا الدموع سخينة من أجلك ...

إيه يا أبا سلوى ! ... لقد كنت باتساع أفق شعورك ورحابة مدى نفسك تغمرنا بروحك وترتفع بنفوسنا وتضرب لنا مثل

وفي التاج : اللواحي : العذال ، والعذال من جموع العاذل .
وفي اللسان : اللواحي : العواذل
وقال الجوهري في (صحاحه) : قول الراجز :

لقد علمتُ الأجلَّ الباقي أن لا تردُّ القدرَ الرواقي

كأنه جمع امرأة راقية أو رجلاً راقية بالهاء للمبالغة . أو رجلاً راقياً بغير هاء حتى ينضوي هذا الجمع إلى ذاك الجيش ...

هذه جريدة ما وجدناه ، وقد يكون هنالك ما ذهب علينا ، وهي العربية المتبحبحة[1] في كلماتها ولغاتها . قال الإمام ابن ادريس الشافعي في رسالته في أصول الفقه : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً . ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي[2] » . « يم »

(١) تقول العامة : فلان متبحبح يا سيدي في عيشته . ولفظة القوم كما ترى فصيحة صحيحة (٢) غير بالرفع صفة إنسان ، وتنصب على الاستثناء